بدأت منذ بدء تلقي الوحي
التربية بالأحداث في السيرة النبوية الشريفة

د. محمد أمحزون

بدأت التربية بالأحداث منذ اللحظة الأولى في تلقي الوحي والجهد الذي بلغ بالنبي في أثناء تلقين جبريل الوحي بسورة العلق لدى نزوله بالوحي أول مرة.

ثم جاء توثيق الصلة بالله تعالى بقيام الليل والأمر بقيامه قريباً من عام حتى ورمت أقدام الصحابة وفي هذا تربية للنفس على ترك المألوف وترك الدعة والتغلب على النفس تمهيداً لحمل الرسالة.

بعد ذلك جاء الصدع بالدعوة والجهر بها وفيه ما فيه من مجابهة الباطل.

ثم تلاه إيذاء قريش للنبي والمسلمين وقد عانى الصحابة في ذلك أشد المعاناة مما هو مبثوث في كتب السيرة وكان من نتيجة هذه الموجة من العذاب أن مات من مات تحت التعذيب وصبر من صبر وفتن من فتن فتخلصت الدعوة منذ البداية ممن لم يكن أهلاً لحملها إذ كانت التربية بالأحداث محك الاختبار وعندئذ لم يكن يقدم على الإيمان إلا من نذر نفسه لله وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة بل الموت في أبشع الصور أحياناً. وللإشارة فالذين ثبتوا هنا كانوا أقدر على تحمله بعد ذلك.

وهذا الموقف من ضبط النفس طول تلك المدة رغم كثرة الحوادث والمصائب التي أصابت المسلمين من حبس وتعذيب وإذلال واستهزاء يؤكد أن قوة ضبط الأعصاب وقوة التحكم بالإرادة وفقاً للأوامر قد بلغت المستوى المطلوب وأن تلك التربية قد أينعت ثمارها.

ومن التربية بالأحداث تربية النفوس المؤمنة بالتوجيه والتحذير والعتاب حيث كانت تجيء التوجيهات الربانية إلى النبي والذين معه وهم في مكة تدعوهم إلى السماحة واليسر والحلم خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (الأعراف: 199) لما في ذلك من تربية للنفس على الصبر والحلم والأناة وإعدادها لحمل أعباء وتبعات الدعوة مستقبلاً.

ومن التربية بالأحداث: ربط العلم بالعمل

وفي مسيرة التربية بالأحداث يتبادر سؤال: لماذا هاجر إلى الحبشة أشراف القوم الذين لم يتعرضوا للأذى كعثمان والزبير وجعفر ولم يهاجر المستضعفون كبلال وعمار وصهيب وخباب وأمثالهم؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال نقول: يبدو أنها كانت توطئة نفسية وعملية لهؤلاء على مغادرة وطنهم بينما لم يكن للمستضعفين حاجة لذلك فليسوا من أهل مكة وليس لهم ارتباط بالأرض فاجتمع للأشراف أمران: الارتباط بالقوم والقبيلة والارتباط بالأرض وهما يزاحمان في النفس معاني التوحيد وكان لا بُدَّ من التخلص عملياً وليس قولاً من ذلك وكان إعلان الإيمان تخلصاً من العصبية القبلية أما الارتباط بالأرض فقد اجتمع في مكة ما لم يجتمع في غيرها من مزايا نفسية واجتماعية تربطهم بها فكانت الهجرة هي التطبيق العملي لأولوية العقيدة وترك الأرض.

ومن التربية بالأحداث: بلوغ الأذى ذروته في حصار الشعب ومما يستخلص من عِبر هذا الحصار أنه لا تكاد تخلو جاهلية من الجاهليات القديمة أو المعاصرة من قيم يمكن الاستفادة منها فقد ضحى بنو هاشم تضحيات كبيرة في سبيل قيمهم الجاهلية الخاصة بحماية القريب واستفاد الإسلام من هذه المواقف والتضحيات. فإذا وُجدت فرص في مجتمعاتنا المعاصرة مثل: الدفاع عن المظلوم أو الحرية الفكرية في بعض الدول فلا ضير من الاستفادة منها.
ومن التربية بالأحداث: الهجرة وما اكتنفها من مصاعب وشدائد كمواقف أبي بكر مع الرسول ومواقف المسلمين منخلعين عن أهلهم وديارهم وأموالهم كما حصل لصهيب ولأبي سلمة وأم سلمة وغيرهم.

التربية بالأحداث في المدة المدنية
في بداية المدة المدنية لقي المسلمون من اليهود والمنافقين أذى كبيراً وكان المسلمون يحسون بالخطر كل وقت ولما يبيتون إلا في السلاح لأنهم لا يستبعدون أن تهاجم المدينة في أي وقت وصبروا على ذلك ما شاء الله حتى قال رجل من الصحابة: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله: لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست له حديدة وأنزل الله هذه الآية: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ (النور: 55).
وإزاء كل هذا تبرز الحاجة ملحة إلى التزود بالصبر والتقوى اللذين هما عُدّة المؤمن للتغلب على الصعاب.
لكن هذا الموقف لم يمنع من الاستعداد والتأهب لمواجهة العدو الظاهر على مسرح الأحداث يومئذ -وهو قريش-.
ويكفي لبيان كثافة الحركة الجهادية في هذه المدة: أن عدد الغزوات التي قادها النبي بنفسه سبع وعشرون غزوة وعدد السرايا والبعوث ثمان وثلاثون بين بعث وسرية.
بعد ثمانية عشر شهراً من الهجرة كانت معركة بدر وهي أعظم وأعمق الأحداث في تلك المرحلة وقد نزلت سورة الأنفال في هذه الغزوة لتسديد الخطوات بالتوجيه لوضع الخطوات الجهادية في مسارها الصحيح فجاء فيها الأمر بالثبات والإعداد والتواضع والإنفاق وعدم التنازع والعتاب على قبول الفداء في الأسرى.
وفي أُحُد يتضح أن عاقبة المعصية وخيمة وقد تجلت دروس كثيرة عملية فيها ونجم النفاق وظهر أن مخالفة جزئية وطمعاً في الدنيا كان سبباً في الخسارة فما بالك بأمة تلقي كتاب ربها وراءها ظهرياً ولما يخطر على بالها جهاد وتستحل الربا والغلول وغير ذلك!
ثم جاءت غزوة الخندق والظروف الصعبة وأضافت إلى دروس أحد دروساً جديدة ترقى بها ذلك الجيل الذي لو توقف عند حد معين لخسرت الإنسانية كلها.
ثم جاء معلم جديد من معالم التربية لكنه امتحان من نوع آخر إنه امتحان القلوب المؤمنة التي جاشت بالحمية الإيمانية والغيرة لله وهي قلوب مفعمة باستعلاء الإيمان وعز الطاعة تأبى أن يستضيمها عدو الله أو تنصاع لضغوطه في أي ميدان لقد صدمت هذه الجماعة الراشدة الزاحفة أبداً إلى الأمام وهي تواجه منعطفاً خطيراً يشتهي فيه الكافرون من الشروط ما يشتهون ويحملونها عليها ثم ترى قائدها يقبلها بدون تحفظ مما أثار حميتها وغيرتها الإيمانية رافضة هذه الشروط التي تبدو في نظرها مجحفة.
ولعل ما حدث من موقف المؤمنين بالنسبة للصلح كان بسبب الاندفاع الجهادي الذي كان نتيجة للتربية في المدة السابقة فاقتضى الأمر مرحلة عُليا من التربية مرحلة تتعدى مراحل الحض والإيقاد ورفع الهمم والعزائم إلى مرحلة تهذيب الحماس وتسكين الحمية الإيمانية لتوافق الوحي في كل أمر وإن رأت مواقفه شاقة على حظ النفس. فكان من أهم دروس الحديبية: اتهام العقل أمام النصوص الصريحة وظلت الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم يقول عمر: أيها الناس اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله برأيي اجتهاداً فوالله ما آلو عن الحق وذلك يوم أبي جندل حتى قال لي رسول الله: تراني أرضى وتأبى؟!. وكان سهل بن حنيف يقول: أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله لرددته (رواه البخاري).
ثم توالت الأحداث مؤكدة الحكمة البالغة وراء هذا الصلح فاعترفت قريش بكيان المسلمين لأول مرة وتمكنت خزاعة من إعلان تحالفها الصريح مع المسلمين وتفرغ المسلمون ليهود خيبر وانتشر الإسلام كما يقول الزهري: فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً... ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك.اهـ.

من ثواب الإيمان
خرج النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف وبهذا يرقى الإيمان وترسخ قاعدة عظمى من قواعد التزكية الإيمانية: أن من ثواب الإيمان حصول إيمان أعلى منه ومن جزاء المعصية نقص الإيمان بمعصية أخرى وهي قاعدة لم تثبت من خلال موعظة في مسجد ولا محاضرة في جامعة وإنما في موقف مهول كهذا.

ثم جاءت غزوة حنين وفيها الاعتداد بالكثرة فعوقبوا ثم عوتبوا على ذلك وفي ذلك اليوم حذرهم النبي من الاعتداد بالكثرة ورغم التذكير بما حصل لمن اغتروا من قبلهم إلا أنهم لم يستوعبوا الدرس إلا بصورة عملية عندما تراجعوا وذاقوا مرارة الهزيمة وقوي إيمانهم حينما رأوا ثبات النبي.

كما أن في هذه الغزوة عبراً أخرى ظهرت عند قسمة الغنائم وتسلط بعض الأعراب وتم فيها اختبار قوة إيمان الصحابة وثباتهم أمام مغريات النفس.

وفي غزوة تبوك كان أعظم ابتلاء بإعلان الجهاد في وقت الحر الشديد ووقت ضائقة مالية إلا أن الاستجابة كانت عظيمة ومن العبر قول الله تعالى: وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (التوبة: 122) حيث يقول سيد قطب في هذا النفير: تنفر من كل فرقة منهم طائفة -على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون- لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم بما رأته وما فقهته من هذا الدين... ويذكر أصل رأيه من قول المفسرين ثم يقول: أما الذين يقعدون: فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ولما فقهوا فقههم.. وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه.

لقد كان من آفاق هذه التربية أن كانت الغزوة بمنزلة تمحيص نهائي واستئصال جذري للطفيليات المحسوبة عليها وليست منها.